## الفصل الاربعون بعد المئة

# اللسان العربي

والآن فلسان من ، هو هذا اللسان العربي ، لقد علمنا انه لم يكن لسان العرب الجنوبيين ، ولا لسان قوم ثمود أو اللحيانيين،أو الصفويين ، لأن نصوصهم تثبت انه قد كان لهم لسان آخر ، يختلف عن هذا اللسان . وذكرنا انه ليس بلسان قريش ، وانما قريش كغيرهم عرب من العرب ، فهل هو لسان العدنانيين؟ وجوابنا : كلا ، فقد علمنا ان العدنانية عصبية ظهرت في الاسلام، وانها مضرية سميت عدنانية ، وقلنا ان الثقات من الرواة وقفوا في ذكر النسب عند ( عدنان ) ورووا ان النبي نهى عن الانتساب الى ما بعده ، وقلنا ان اسمه لم يرد في شعر شاعر جاهلي ، خلا ما نسب الى الشاعر ( العباس بن مرداس ) ، من قوله :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا بمذحج حتى طردوا كل مطرد[1]

وما نسب الى لبيد ، وهو من المخضرمين ، من قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان والدا [2]

وقلنا أشياء أخرى تثبت ان ( العدنانية ) لم تظهر إلا في الإسلام ، وان اسم

---

١ وفي رواية بغسان ، مكان « بمذحج » ، ابن هشام ( ١/٦ ) ، ابن سلام ، طبقات (٥)

٢ طبقات ابن سلام (٥) .



obeikandi.com

( عدنان ) لم يكن معروفاً في الجاهلية ، وربما ظهر قبيل الاسلام ، ولهـذا فلا يعقل أن تكون العربية ، عربية العدنانيين .

إذن ، فهل هي عربية مضر ؟ فقد ورد في الأخبار أن ( عمر بن الخطاب ) ، « لما أراد أن يكتب الامام ، أقعد له نفراً من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر ، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر »[1] ، ونجد أهل الأخبار يذكرون أنه قال : « لا يملين في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش ، أو غلمان ثقيف »[2] . وليس بين الخبرين تناقض ، لأن قريشاً من مضر ، فيمكن حمل الخبرين على أنهما قصدا شيئاً واحداً ، هـو أن القرآن نزل بلسان قريش ، وقريش من مضر ، ولكن مضر قبائل عديدة ، سبق أن تحدثت عنهـا في الجزء الأول من هذا الكتاب ، فيجب أن يكون نزول القرآن إذن بلغات هذه القبائـل على هذا التفسير ،وتكون العربية الفصحى اذن عربية ( مضر ) ، أي عربية القبائل التي يرجع أهل الأخبار نسبها الى ( مضر ) ، أو حلف مضر بتعبير علمي أصح ، وليست عربية جماعة معينة منها ، مثل قريش .

ولكن أهل الأنساب ، يجعلون لمضر أخاً هو ( ربيعة ) ، وأخوين آخرين ، هما ( إياد ) و ( أنمار ) على رأي من جعل ( أنماراً ) ابناً من أبنـاء نزار ، فما هو حال لسانهم ؟ هل يعدّ لسانهم لسان مضر ، أم كانت لهم ألسنة أخرى؟ أما النصوص الجاهلية ، فلا جواب فيها على هذا السؤال ، لأنها لا تعرف عن لسان هؤلاء الأخوة شيئاً ، ولم يرد فيها أي شيء من أسمائهم وأسماء قبـائلهم ، ثم ان هذه القبائل لم تترك لنا كتابة نستنبط منها شيئاً عنهم ، اذن فنحن لا نستطيع أن نتحدث عنهم ولا عن لسانهم بأي شيء يستند الى دليل جاهلي مكتوب . وأما الموارد الاسلامية ، فتجعل لسانهم لسان مضر ، وكيف لا تجعل لسانهم مثل لسان مضر ، وهم اخوة من أب واحد . فإذا قلنا إن لسان مضر ، هو اللسان العربـي الفصيح ، وجب علينـا القول بأن لسان إخوته كان مثل لسانه ، وإذن فاللسان العربي الفصيح ، هو لسان هذه المجموعة المكونة من ولد ( نزار ) وهي من ولد اسماعيل في النهاية على رأي أهل النسب والأخبار .

---

١ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) .
٢ ابن كثير ، فضائل (٢٠) ، المزهر ( ١/٢١١ ) .

اذن فنحن أمام مجموعتين من العربيات ، مجموعة تكوّن العربية الجنوبية ، ومجموعة تكوّن العربية الشمالية ، وهي عربية الاسماعيليين ، وذلك على مذهب أهل الأخبار .

أما أنا ، فأسمي هذه العربية ، عربية ( ال ) ، من سمة (ال) أداة التعريف التي تنفرد وتتميز بها عن بقية المجموعات اللغوية العربية : مجموعة (ن) (ان) ، أي المجموعة العربية الجنوبية ، ومجموعة (ه) ( ها ) ، أي المجموعة التي تعرّف الأشياء بهذه الأداة : ( ه) ( ها ) ، وتشمل اللحيانية ، والثمودية ، والصفوية . فكل منا استعمل ( ال ) أداة للتعريف ، هو في نظري من الناطقين بهذه اللغة مهما كان نسبه وفي أي مكان كانت اقامته ، ولذلك فالعربية الفصحى هي عربية مضر وعربية ربيعة ، وعربية إياد وعربية أنمار وعربية كلب وكندة والأزد وكل المستعملين لهذه الأداة ، حتى يظهر المستقبل نصوصاً جديدة، قد تأتي بأداة أخرى لتكوّن مجموعة جديدة من المجموعات اللغوية .

نعم إن عربية ( ال ) لهجات ، لها خصائص ومميزات ، تحدثت عن بعضها في فصل ( لغات العرب ) ، ولكن الفروق بينها لا تختلف عن الفروق التي نجدها بين لهجات مجموعة ( ن ) ، أو بين لهجات مجموعة ( ه ) ، لأنها فروق ليست كبيرة بحيث ترتفع الى مستوى الاستقلال عن بقية اللهجات .

## العربية الشمالية والعربية الجنوبية :

وقد اصطلح المستشرقون على رجع اللغات التي ظهرت في جزيرة العرب الى أصلين : أصل شمالي يقال للغات التي تعود اليه : اللغات أو اللغة العربية الشمالية، وأصل جنوبي يقال للغات التي ترجع اليه: اللغات أو اللغة العربية الجنوبية[١] .

وهذا التقسيم التقليدي للهجات العرب انما خطر ببال المستشرقين من النظرية العربية الاسلامية التي ترجع العرب الى أصلين : أصل عدناني ، وأصل قحطاني. ونظراً الى عثورهم على كتابات عربية جنوبية تختلف في لغتها وفي خطها عن العربية القرآنية ، رسخ في أذهانهم هذا التقسيم،وقسموا لغات العرب الى مجموعتين لسهولة البحث حين النظر في اللغات واللهجات .

١ Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 2.

وبين العربيتين تباين واختلاف ، ما في ذلك من شك . من ذلك ان الفعل في العربيات الجنوبية وليد المصدر ، وان أداة التعريف فيها تكون في أواخر الكلم ، لا في أوائلها كما هو الحال في عربيتنا ، وان حرف ( الميم ) هو أداة التنكير في العربيات الجنوبية ، الى فروق أخرى ، تحدثت عنها في الجزء السابع من كتابي القديم ( تأريخ العرب في الاسلام ) .

وإذا كنا لا نزال في جهل عن حقيقة اسم ( عدنان ) ، الذي لم نعثر عليه حتى اليوم في نص من نصوص المسند ، فإن في وسعنا التحدث عن ( قحطان ) ، الذي سبق أن أشرت الى أن أهل الأنساب أخذوه من التوراة . فهو اسم مهما قيل فيه ، فقد أخذ من مصدر قديم يعود الى ما قبل الميلاد . ثم انه أورد في النص العربي الجنوبي الذي وسم بـ ( Jamme 635 ) ، الذي دونه قائد الجيش ( ابكرب احرس بن ابلم ) ، ( أبكرب أحرس بن ابل ) ، أو (أبكرب أحرس ) من ( آل ابل ) ( آل ابال ) ، وذلك لمناسبة عودته سالماً من حرب قادها بأمر ملكه وسيده الملك ( شعر أوتر ) ملك سبأ وذي ريدان ، ابن الملك ( علهان نهفان ) ملك سبأ وذو ريدان . وقد شمل القتال أرضاً واسعة ، هي ( أشعران ) ، أرض الأشعريين و ( بحر ) ، والقبائل القاطنة حول مدينة ( نجران ) ، ثم الأحباش الذين كانوا يحاربون معهم ويؤازرونهم في قتالهم ضد السبئيين ، ثم سكان مدينة ( قريتم ) ( قرية ) الذين كانوا من ( كاهل ) (كهلم) ، ثم في الصدامين اللذين وقعا مع ( ربعت ) ( ربيعة ) ( ذ آل ثور ) ، (ربيعة) من ( آل ثور ) ، ملك ( كدت ) ( كندة ) وقحطان ( قحطن ) ، وكذلك ضد ( أبعل ) أي سادة مدينة ( قريتم )[1] .

ويفهم من النص ان ( ربعت ذ الثورم ) ، هو اسم رجل ، اسمه (ربيعة ) من ( آل ثور ) . وكان كما يقول النص ملكاً على (كندة) و ( قحطان )[2] . ويذكر أهل الأخبار ، ان ( كندة ) اسم قبيلة وأبو حي من اليمن ، وهم من نسل ( ثور بن مرة بن أدد بن زيد ) ، وقيل ( بنو مرتع بن ثور ) ، أو

---

١ الاسطر ٢٢ ــ ٢٩ من النص .

٢ السطر ٢٦ ــ ٢٧ من النص ، ( ربت ذ الثورم ملك كدت وقحطن ) ، REP. EPIG. 4304.

( كندة بن ثور ) ، وقيل ان ثوراً هو مرتع ، وكندة هو أبوه ، الى غير ذلك من آراء[1] ، تريك ان شيئاً من الواقع كان عند أهل الأخبار عن هذه القبيلة ، غير انهم لم يكونوا يعرفون شيئاً واضحاً عنه . وترى من هذا النص ان (آل ثور) اسم أسرة كانت تحكم قبيلتي ( كدت ) ( كندة ) و ( قحطان ) ، وان رئيسها إذ ذاك هو ( ربيعة ) الذي لم يرد اسم والده . وقد جعل أهل الأخبار من ( آل ثور ) رجلاً جعلوه أباً لقبيلة كندة ، ثم حاروا في نسبه . ويتبين من هذا النص ان ( قحطان ) كانوا في هذا العهد تحت حكم ( ربيعة ) الذي هو من ( آل ثور ) .

وقد جعل ( جامة ) حكم ( شعر أوتر ) الذي سبق أن تحدثت عنه بتفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب[2] في حوالى السنة (٦٥) قبل الميلاد[3] ، وقد بنيت آراء بقية الباحثين في وقت حكمه ، فنكون بذلك قد وقفنا على اسم قحطان وكندة في نص يعود عهده الى حوالى القرن الأول قبل الميلاد . وقد كانتا مثل أهل ( قرية ) وأهل ( نجران ) في حرب مع السبئيين . وهذا النص هو أقدم نص عربي جنوبي وصل فيه اسم ( قحطان ) و ( كدت ) ( كندة ) الينا حتى الآن .

ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن لهجة ( قحطان ) و ( كدت ) ( كندة ) ، وذلك بسبب عدم وصول كتابات منها الينا ، ولكننا لا نستبعد احتمال كون لغتها من مجموعة اللغات العربية الجنوبية ، لأن مواطنها كانت في العربية الجنوبية في هذا العهد ، أما بطون ( كندة ) التي نزلت ( نجداً ) والتي ذهب بعضها الى العراق ، فنحن لا ندري إذا كانت لهجتها قد تغيرت ، فصارت عربية شمالية ، بدليل نظم ( امرىء القيس ) الكندي وبقية شعراء الكندة الشعر بهذه العربية ، أم أنها كانت تتكلم بالعربيتين ، إلا أن شعراءها كانوا ينظمون الشعر بالعربية المعهودة مجاراة للقبائل الشمالية التي كانت تجاورها والتي احتكت بها ، وقد تكون هذه البطون قد هاجرت من العربية الجنوبية قبل الميلاد ، فأقامت بنجد ، وتعربت من ثم بالعربية الشمالية ، وقد تكون ( كدت ) قبيلة عربية جنوبية غير (كندة) ،

---

١ تاج العروس ( ٤٨٧/٢ ) ، ( كند ) .
٢ ( ص ٣٦٩ وما بعدها ) .
٣ JAMME, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis, p. 391.

بقيت في اليمن الى الاسلام ، إذ ورد اسمها في نص ( أبرهة ) أيضاً ، ونظراً الى التشابه فيما بين ( كدت ) ( كدة ) و ( كندة ) ربط النسابون بين الإثنين، وجعلوا نسب كندة ( كدت ) . فتكون ( كندة ) بذلك من القبائل العربية الشمالية، و ( كدت ) من القبائل العربية الجنوبية ، أقول هذه الآراء على سبيل الاحتمالات لأني من الأشخاص الذين يكرهون البت في الأمور العلمية لمجرد حدس أو ظن، ومن غير دليل علمي مقنع . والبت في مثل هذه الأمور لا يكون مقبولاً عندي إلا إذا استند على نص جاهلي ، أو بدليل معقول مقبول ، وحيث أننا لا نملكه الآن ، فأترك هذه الاحتمالات الى المستقبل علّه يتمكن من العثور على نصوص جاهلية تكشف القناع عنها ، وتأتي الينا بالجواب الواضح الصحيح .

ولكننا نجد في الوقت نفسه – وكما سبق أن ذكرت – ان هنالك لهجات عربية مثل الثمودية والصفوية ، تستعمل ( الهاء ) أداة تعريف بدلاً من الألف واللام في عربيتنا ، فيقال ( هملك ) ، و ( هدار ) بمعنى (الملك) و (الدار) . وذلك كما في العبرانية ، إذ تستعمل الهاء فيها أداة للتعريف ، ويقوم ( ذ ) فيها مقام الاسم الموصول كما عند طيء في قديم الزمان ، الى خصائص أخرى تجعلها مجموعة أخرى لا هي عربية جنوبية ولا هي عربية شمالية .

كما تبين من دراسة بعض الكتابات الجاهلية ، مثل الكتابات التي عثر عليها في ( القرية ) وفي جبل ( عبيد ) ، وفي شمال خشم كمدة ان لها خصائص انفردت بها عن المجموعتين ، وقد وردت فيها أسماء كثيرة لم ترد في الكتابات العربية الجنوبية وفي عربية ( ه ) ، مما يجعلها أهلاً لأن تكون موضع دراسة خاصة في المستقبل ، لعلها تكون مجموعة لغوية جديدة قائمة بذاتها ، أو حلقة مفقودة بين اللغات الجاهلية المندثرة .

ووجود مثل هذا التباين الذي اكتشف من الكتابات ، هو الذي دفعني إلى التفكير في اعادة النظر في تقسيم اللغات العربية الى مجموعتين،وعلى التفكير بتقسيمها الى مجموعات ذات خصائص لغوية متشابهة،تستنبط بالدرجة الأولى من أداة التعريف التي هي المميز الوحيد الذي يميز بين لهجات الجاهليين .

ونلاحظ ان عربية الـ (ن) (ان) مصطلحات غير موجودة في العربية الفصيحة لكنها موجودة في العبرانية . وفيها عدد غير قليل من الكلمات المجهولة في اللغات

السامية الأخرى ، صعب على العلماء إدراكهـا بسبب ذلك ، فاكتفوا باستخلاص معناها من وضعها في الجمل ، وذلك بصورة تقريبية[1] . كما نلاحظ ان الأسماء فيها ، تختلف عن الأسماء المعروفة عند العرب الشماليين ، وان الأسماء الواردة في كتابات المسند المتأخرة ، تختلف بعض الاختلاف عن الأسماء الواردة في النصوص القديمة ، فقد تغلبت البساطة على الأسماء المتأخرة ، حتى صارت تشاكل أسماء العرب الشماليين المألوفة عند ظهور الاسلام . وقد لاحظ (الهمداني) هذه الظاهرة، فعبر عنها بقوله : « فربما ثقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل فخففتها العرب وأبدلت فيها الحروف الذلقية ، وسمع بها الناس مخففة مبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفر ، خال الجاهل انه غير ذلك الاسم وهو هو[2].

وخير ما يمكن أن نفعله في نظري لمعرفة المتكلمين بالعربية الفصحى ، هو أن نقوم بالبحث عن الخصائص النحوية والصرفية واللفظية التي تميزها عن بقية العربيات، فإذا ضبطناها استطعنا تعيين من كان يتكلم بها . ولما كنا لا نملك نصوصاً جاهلية مدوّنة بها ، صار من الصعب علينا التوصل الى نتائج علمية ايجابية مرضية، تحدد القبائل والأماكن التي تكلمت بها تحديداً صحيحاً مضبوطاً ، غير أن المثل العربي يقول : ما لا يدرك كله لا يترك جله ، فإذا عسر علينا الحصول على نتائج كلية مقنعة ، فلا بأس من الرضا بالحصول على جزء أو بعض من نتائج قد تقدم لنا معرفة وعلماً . ونحن إذا سرنا وفق حكمة هذا المثل ، ودرسنا خصائص هذه العربية ، نجد أن من أولى ميزاتها استعمالها ( ال ) أداة للتعريف ، تدخلها على أول الأسماء النكرة ، فتحيلها الى أسماء معرفة ، بينما نجد العربيات الأخرى التي عثر على نصوص جاهلية مدوّنة بها تستعمل أدوات تعريف أخرى . ولما كنا نعرف المواضع التي عثر فيها على هذه النصوص ، صار في إمكاننا حصرها، وبذلك نستطيع التكهن عن المواضع التي كان يتكلم أهلها بالعربية التي تستعمل ( ال ) أداة للتعريف ، أي هذه العربية الفصحى . ولما كانت العربية الجنوبية قد استعملت الـ ( ن ) ( ان ) أداة للتعريف ، تلحقهـا في أواخر الأسماء المنكرة ، وحيث أننا لم نتمكن حتى الآن من الحصول على نص في هذه الأرضين استعمل ( ال ) أداة للتعريف فباستطاعتنا القول : إن سكانها لم يدوّنوا بالعربية القرآنية ،

---

١ ولفنسون ، السامية ( ٤٦ ٢وما بعدها ) .

٢ الاكليل ( ١٣/١ ) .

بل كان تدوينهم وكلامهم بالعربية الجنوبية التي كانت تضم جملة لهجات . ولما كان آخر نص عثر عليه مدوّن بالمسند ، يعود تأريخه الى سنة (٥٥٤) للميلاد[١] ، صار في إمكاننا القول بأن العربية الجنوبيـــة كانت وبقيت لساناً للعرب الجنوبيين الى ظهور الاسلام .

ونظراً لعثور الباحثين على كتابات مدوّنة بالمسند ، في ( القريـة ) أو ( قرية الفأو ) وفي مواضع أخرى من (وادي الفأو) ، وفي مواضع من (وادي الدواسر)، وفي مواضع تقع جنوبي خشم العرض ، فإن في استطاعتنا القول إن أهل هـــذه الأرضين كانوا يكتبون بالمسند[٢] ، ويتكلمون بلغات عربية جنوبية ، اختلفت بعض الاختلاف عن العربيات الجنوبية المستعملة في العربية الجنوبية . فهي إذن من المناطق التي لم يتكلم أهلها بالعربية القرآنية . ونظراً لما نجـده من وجود بعض الاختلاف بين عربية هذه المنطقة وعربية العربية الجنوبية ، فإننا نستطيع القول بأنهـــا تكون مرحلة وسطى بين العربيات الجنوبية والعربية القرآنية ، وحيث أن كثيراً من هذه الكتابات لم يكتب لهـــا النشر ، ولوجود كتابات أخرى لم يتمكن الباحثون من نقشها أو تصويرها ، فمن المحتمل في رأيـي مجيء يوم قد يعثر فيه عـــلى لهجات جديدة ، قد تزيح الستار عن أسرار اللغات عند الجاهليين ، وقد تكون مجموعات لغوية جديدة من مجموعات اللغات العربية عند أهل الجاهلية .

وقد عثر في العربية الشرقية على كتابات جاهلية مدوّنة بالمسند هي وإن كانت قليلة ، إلا أنها ذات أهمية كبيرة بالنسبة للبـــاحث في تأريخ تطور الكتابة عنـــد العرب ، وللباحث في اللهجات العربية الجاهلية . فقد ثبت منها أن أصحاب هذه الكتابات كـــانوا يتكلمون بلهجات غير بعيدة عن اللهجة العربية القرآنية ، وإن كتبوا بالمسند . ويلاحظ من النص الذي هو شاهد قبر رجل اسمه ( ايليا بن عين ابن شصر ) أنه استعمل لفظة ( ذ ) بمعنى ( من ) ونأسف لأن هـذه النصوص القليلة قصيرة،وفي أمور شخصية ، قد خلت من أداة التعريف ، لذلك لا نستطيع تثبيت لهجتها بصورة أكيدة[٣] .

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ( ١/٢٢ ) .

٢ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ( ١/١٩٥ وما بعدها ) .

٣ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ( ١/١٩٣ وما بعدها ) .



obeikandi.com

واستناداً الى النصوص الثمودية واللحيانية والصفوية ، التي استعملت الـ ( هـ ) ( ها ) أداة للتعريف ، نستطيع أن نقول إن أصحاب هـذه اللهجات يكوّنون مجموعة من اللغات قائمة بذاتها ، تختلف عن العربية الجنوبية وعن العربية القرآنية. وهي تشارك العبرانية في استعمال الأداة المذكورة في التعريف،ولكنها تقارب عربية ( ال ) في استعمال المفردات .

وأما النبط ، وهم عرب من العرب الشماليين ، فقد استعملوا أداتين للتعريف، أداة هي حرف الألف الممدود اللاحق بآخر الاسم ، مثل (ملكا) بمعنى (الملك) ، و ( مسجدا ) ، بمعنى ( المسجد ) ، وأداة أخـرى ، هي أداة ( ال ) التي نستعملها في عربيتنا . وفي استعمال النبط لأداتـين للتعريف ، دلالة على تأثرهم بالآراميين وبالعرب المتكلمين باللغة العربية القرآنية ، أو العرب المستعملين لأداة التعريف (ال) بتعبير أصح . والنبطية نفسها ، لغة وسط ، جمعت بين الآرامية والعربية ، فبينما نجدها تستعمل الآرامية ، اذا بها تخلط معها ألفاظاً وتراكيب عربية فصيحة . وذلك بسبب اختلاط النبط بالآراميين وتأثرهم بثقافتهم ، واحتكاكهم بالأعراب،وكونهم عرباً في الأصل[1] . ومعنى هذا ان العرب الذين كانوا يجاورون النبط ، وهم عرب البوادي كانوا من المتكلمين بأداة التعريف ( ال ) ، سمة العربية الفصيحة .

وأما النصوص المدونة بنبطية مشوبة بمصطلحات عربية ، وأهمها نص (حرّان) الذي يعود تأريخه الى سنة ( ٣٢٨ ) للميلاد ، فإنه يفصح عن قوم عرب أو نبط لاستعمالهم ( ال ) أداة للتعريف في الألفاظ : ( التج ) بمعنى ( التاج ) ، وفي ( الأسدين ) ، بمعنى ( أسد ) ، وفي ( الشعوب ) . وأرجح كونهم عرباً ، لاستعمالهم جملاً عربية فصيحة بينة في هذا النص ، مثل : ( ملك العرب ) ، و ( مدينة شمر ) ، و ( نزل بنيه الشعوب ) ، و ( فلم يبلغ ملك مبلغه ) ، فهذه جمل عربية ، أصحابها عرب ، وإن كتبوا بالنبطية ، وقد تفصح عن عربية أهل الحيرة في ذلك الوقت ، لأن الملك المتوفى ، وهو ( امرؤ القيس ) ، هو من ملوك الحيرة ، والنص المكتوب ، هو شاخص قبره ، فمن المعقول تصور أن الكتابة كتبت بلغة أهل الحيرة في ذلك العهد[2] .

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ( ٧/٣٠٥ وما بعدها ) .
٢ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ( ٧/٢٧٣ وما بعدها ) .

ويظهر من استعمال كتابة ( زبد ) التي يعود عهدها الى سنة (٥١٢) للميلاد ، لجملة « بسم الإلـه » ، أن صاحبها وان كتب بالنبطية ، غير أنه كان من النبط المستعملين لـ ( ال ) أداة للتعريف . وأما الكتابة المعروفة بكتابة ( حران ) ، فإنها أقرب هذه النصوص الى العربية القرآنية . كما يتبين ذلك من نصها العربي ، وهو:

انا شرحيل بر ظلمو ، بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ ، بعد مفسد خيبر بعم . أي : (أنا شرحيل) ( شراحيل ) بن ظالم ، بنيت هذا المرطول سنة ٤٦٣ ، بعد خراب (غزو ) خيبر بعام . ويقابل تأريخ هذا النص سنة (٥٦٨) للميلاد [1] .

وعربية هذا النص ، عربية واضحة ، ليس فيها ما يحاسب عليه بالقياس الى عربيتنا ، إلا جملة ( بر ظلمو ) المكتوبة على وفق القواعد النبطية . ويلاحظ أنها استعملت ( ال ) أداة للتعريف ، ولاحظت قواعد النحو في جملة : « بنيت ذا المرطول » المستعملة في عربيتنا ، مما يدل على أن صاحبها كان يراعي الإعراب في لسانه . وأنه من قوم كانوا يراعون قواعد الإعراب في كلامهم .

إذن فنحن أمام قوم عرب ، نبط ، لسانهم العربي من مجموعة ( ال )، أي من العربية المستخدمة لـ ( ال ) أداة للتعريف ، منازلهم أطراف بلاد الشأم ، وشواطيء الفرات العربية . واذا تذكرنا أن السريان كانوا على الحيرة ( حيرتا دي طياية ) ، وأنهم كانوا يطلقون لفظة ( طيـاية ) في مرادف ( عرب ) ، عرفنا إذن ، أن أهلها كانوا من العرب[2] ، ولما كان نص ( النمارة ) قد كتب بنبطية متأثرة بعربية ( ال ) ، نستطيع أن نقول ان عرب الحيرة كانوا من المتكلمين بهذه العربية .

يتبين لنا مما تقدم ، ان العرب الذين كانوا يقطنون الحيرة والأنبار، أو عرب العراق بتعبير أصح ، ثم عرب بلاد الشأم ، وعرب البوادي ، وجزيرة العرب باستثناء المواضع التي أمدتنا بالكتابات ، كانوا يتكلمون بعربية ( ال ) أي العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، ودوّن بها الشعر الجاهلي . وهي عربية أساسية ، جمعت شمل لغات ولهجات ، على نحو ما وجدنا في العربية الجنوبية من اشتمالها على جملة لهجات ، وما وجدناه في اللهجة العربية الشمالية الغربية ، المستعملة لـ (ه) ( ها ) أداة للتعريف .

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٧/٢٨٠) .
٢ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/١٥٦) .

فأهل نجد وبادية الشأم ، وعرب العراق وبلاد الشأم والحجاز ، كانوا هم المتكلمين بهذه العربية التي تعرّف النكرة بأداة التعريف ( ال ) ، وذلك قبل الاسلام ، أما المواطن الأخرى ، فلها لهجاتها الخاصة ، وبينها لهجات تأثرت بخصائص مجموعة (ال) . وقد غلب الاسلام هذه العربية على اللهجات الأخرى ، فصارت الأكثرية تتكلم بها ، إلا في المواضع المنعزلة ، التي بقيت شبه مستقلة ، حيث احتفظت ببعض خصائص لهجاتها القديمة ، كالذي نراه اليوم في مهرة وفي الشحر وفي مواضع أخرى من العربية الجنوبية التي تتكلم بلهجات لا نفهمها عنهم هي من بقايا اللهجات الجاهلية .

وللوقوف على خصائص اللهجات المكونة لعربية الـ (ن) ( ان ) ، أرى ان من الضروري وجوب ارسال بعثات علمية الى العربية الجنوبية لدراسة اللهجات المحلية ، وهي عديدة وتسجيلها على الأشرطة من أفواه المتكلمين بها ، وللدراسة قواعدها النحوية والصرفية وأصول نظم الشعر عند المتكلمين بها ، وتفيدنا دراسة نظم الشعر – خاصة – عند العرب الجنوبيين الحاليين فائدة كبيرة في الوقوف على أسس نظم الشعر عندهم أيام الجاهلية ، وعلى الفروق الكائنة بين نظمهم قبل الاسلام ، ونظم بقية العرب الجاهليين . ولا بد أيضاً من مقارنة نظمهم في الوقت الحاضر ، بنظم الأعراب في المملكة العربية السعودية ، للوقوف على الفروق بين النظمين ، وستكون هذه الفروق هادياً لنا في الوقوف على الفروق التي كانت بين النظم عند شعراء الجاهلية في بلاد الشأم والعراق ونجد والبحرين واليمامة والحجاز والعربية الجنوبية .

وسوف تساعدنا دراسة لهجات المملكة الأردنية الهاشمية ، المملكة التي كانت تعرف بـ ( ادوم ) في التأريخ ، وكذلك لهجات أعالي الحجاز في الوقت الحاضر ، فائدة كبيرة في الوقوف على خصائص لهجة عربية الـ ( هـ ) ( ها ) ، وفي استنباط قواعدها منها . فلا بد وأن تكون في اللهجة ( البلقاوية )[١] ، وفي اللهجات المحلية الأخرى بقايا من تلك اللغة ، مندمجة مع عربية ( ال ) التي تغلبت على لسانهم منذ الفتح الاسلامي الذي بدأ لتلك البلاد عام (٦٣٣) للميلاد[٢] . ولا بد من دراسة

---

١ نسبة الى البلقاء

٢ Andrzej Czapkiewicz, Sprachproben Aus Madaba, Polska Akademia Nauk, Krakow, 1960.

أصول نظمهم في لغاتهم الدارجة هذه للإهتداء بها على أصول النظم عندهم قبل الاسلام ، وعلى المؤثرات التي أثرت على نظمهم في الوقت الحاضر ، مع دراسة خصائص نظمهم ومـا يمتاز به عن أصول النظم عند بقية العرب في الوقت الحاضر أيضاً .

ولما كنا لا نملك نصوصاً جاهلية بعربية ( ال ) غير مـا ذكرته من النصوص النبطية المشوبة بعربية ( ال ) . ولما كانت هذه العربية ذات لهجات ولغات،عرفت أسماؤها وضبطت في الاسلام،وبينها فروق ومميزات ، كما بينت ذلك في الملاحظات البسيطة السطحية التي جمعها عنها علماء العربية،ولما كنا لا نملك عن هذه اللهجات غير تلك الملاحظات التي أوجزتها في فصل : لغات العرب ، فإن من اللازم ضم دراسة ما سيقوم به علماؤنا في المستقبل عن اللهجات الحالية في مختلف أنحاء جزيرة العرب الى دراسة العلماء المتقدمين ، لتكمل احداهما الأخرى ، وستتولد منها ولا شك دراسة علمية قيمة ، تفيدنا في الإهتداء الى معرفة خصائص اللغات العربيـة قبل الإسلام .

لقد توصلت من دراسة ملاحظات أولئك العلماء ، الى أن هذه اللهجات لم تكن تختلف في كيفية النطق بالحروف ، وفي القواعد الصرفية فقط ، لكنهـا كانت تختلف فيما بينها في القواعد النحوية أيضاً ، مثل حذف الياء من الفعل المعتـل بها إذا أُكد بنون في لغة طيء وفزارة[1] ، ومثل ( ذو ) الطائية التي يلازم اعرابهـا بالواو في كل موضع[2] ، ومثل إعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً ، في لغـة بلحرث ، وخثعم ، وكنانة[3] ، ومثل ( هَلُمَّ ) في لغة أهل الحجاز التي تلزم حالة واحدة على اختلاف ما تسند اليه مفرداً أو مثنى أو جمعاً ، مذكراً أو مؤنثاً ، وتلزم في كل ذلك الفتح ، بينما تتغير بحسب الإسناد في لغة نجد من بني تميم[4] ، الى غير ذلك من أمور تحدثت عنها في فصل : لغات العرب ، وهي لو جمعت في مكان واحد ودرست بعناية ودقة ، دلت على أن الفروق بين هذه اللهجات في القواعد هي أعمق بكثير مما يظن .

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب ( ١/١٤٢ ) .
٢ المصدر نفسه ( ١/١٤٤ ) .
٣ كذلك ( ١/١٤٥ ) .
٤ أيضا ( ١/١٤٨ ) .

ومع وجود هذه الاختلافات والفروق ، كان بإمكان المتكلمين بهـذه اللغات الثانوية المتفرعة من المجموعات اللغوية ، التفاهم فيما بينهم ، كما يتفاهم العراقيون والمصريون وأهل المغرب بعضهم مع بعض مع تكلمهم بألسنة ذات لهجات مختلفة. فكان في استطاعة أهل نجد التفاهم مع عرب الحيرة ، وفي استطاعة أهـل مكة التفاهم مع أهل الحيرة ، والعكس بالعكس ، مع وجود صعوبات بالطبع في فهم النطق باللهجة ، وفي إدراك مخارج بعض الحروف واختلاف القبائل في النطق بها ، ووجود كلمات غريبة في لغة ، قد لا توجد في لغة أخرى . إلا ان هذه الفروق لم تكن شديدة عميقة ، بحيث جعلت فهم العرب بعضهم بعضاً أمراً صعباً ، أو صيرت اللغات وكأنها لغات أعجمية ، لا يفهم المتخاطبون بها أحدهم الآخر . ودليل ذلك اننا نجد الوفود التي وفدت الى المدينة ، لمبايعة الرسول على الاسلام ، تكلم الرسول وتتفاهم معه ومع أصحابه ، وتخطب أو تنشد الشعر أمامه ، وهو يفهمهم ، وهم يفهمونه من دون صعوبة ولا كلفة كبيرة ، لأن أمر هذه اللغات لم يكن على نحو ما تصوره بعضهم من التباين والاختلاف ، والبعد بين الألسنة . اللهم إلا ما كان من أمر أهل العربية الجنوبية ، فقد كانوا يرطنون ، بدليـل ما جاء في كتاب رسول الله الى ( عياش بن أبي ربيعة المخزومي ) حين أرسله برسالة الى أبناء ( عبد كلال ) الحميري ، فقد قال له فيها : « وهم قارئون عليك ، فإذا رطنوا ، فقل : ترجموا »[1] . وربما كان منهم من لا يفقه عربية المسلمين ، الناطقين بعربية ( ال ) ، فكان يترجم لهم بعض من لهم علم وفقه بالعربيات الجنوبية وبعربية القرآن .

وبدليل ثان ، هو أن المسلمين لما حاصروا القصر الأبيض من قصور الحيرة ، سمعوا أهل القصر ، يصرخون : « عليكم الخزازيف » ، « فقال ضرار : تنحوا لا ينالكم الرمي ، حتى ننظر في الذي هتفوا به ، فلم يلبث أن امتلأ رأسُ القصر من رجـال متعلقي المخالي ، يرمون المسلمين بالخزازيف – وهي المـداحي من من الخزف »[2] ، فلم يفهم المسلمون معنى ( الخزازيف ) في بادىء الأمر لكنهم عرفوا أنهم يعنون شيئاً له صلة بالدفاع عن القصر ، ثم عرفوه ، بعد نزول سيل من ( الخزف ) عليهم . وكان أهـل ( الحيرة ) ينطقون بالعربية ، فلما قال

١ ابن سعد ، طبقات ( ١/٢٨٢ ) ، ( بيروت ١٩٥٧ م ) .
٢ الطبري ( ٣/٣٦٠ وما بعدها ) .

( خالد بن الوليد ) لأصحاب عدي بن العبادي : « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الانصاف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عديّ : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال : صدقت »[1] . وقد كانت لهم مدارس تدرس العربية ، كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، ومنهم أخذ أهل مكة كتابتهم ، كما يذكر ذلك أهل الأخبار . فنحن نجد أن العرب كانوا يتكلمون على مقتضى سجيتهم التي فطروا عليها ، ومع ذلك فقد كانوا يتفاهمون ويدركون المعاني ، ولو كانوا من قبائل متباعدة ، ومن أماكن متنائية . « قال ابن هشام في شرح الشواهد : كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات »[2] .

ولما حاصر ( خالد بن الوليد ) الأنبار ، « تصايح عرب الأنبار يومئذ من السور ، وقالوا : صبح الأنبار شرٌّ »[3] . ولما اطمأن بالأنبار « وأمن أهل الأنبار وظهروا ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب . نزلنا الى قوم من العرب قبلنا »[4] . فأهل الأنبار مثل أهل الحيرة عرب ، كانوا يتكلمون العربية ، وهي عربية فهمها خالد ومن كان معه من رجال قبائل ، ولو كانت عربيتهم عربية قريش ، لما سكتوا من النص عليها ، لما في ذلك من تقرب الى قريش . قال الأزهري : « وجعل الله ، عزّ وجل القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبه الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقراها العربية ، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم عربياً ، لأنه من صريح العرب ، ولو أن قوماً من الأعراب الذين يسكنون الباديةَ حضروا القرى العربية وغيرها ، وتناءوا معهم فيها ، سمّوا عرباً ولم يسمّوا

---

١ الطبري ( ٣/٣٦١ ) ، ( حديث يوم المقر وفم فرات بادقلي ) .
٢ المزهر ( ١/٢٦١ ) .
٣ الطبري ( ٣/٣٧٤ ) .
٤ الطبري ( ٣/٣٧٥ ) .

أعراباً » . « والعربية هي هذه اللغة » . « والعرب : هذا الجيل »[1] .

أما لو سألتني رأيي في هذه الخطب التي دوّنها أهل السير والتواريخ والأخبار للوفود التي وفدت على الرسول لمبايعته ، أو عن حديث الصحابة معه قبل الهجرة أو بعدها ، فأقول لك بكل صراحة ، إن هذه النصوص : نصوص كلام الرسول مع الصحابة ، ونصوص كلام الصحابة معه ، هي نصوص وردت الينا بأفواه الرواة ، كلامها كلامهم ، وعباراتها عباراتهم ، أما المعاني ، أي المضامين ، فهي التي أخذت بالرواية ، وفي بعضها زيادات أو نقصان ، ظهرت بسبب طبيعة الاعتماد على الذاكرة لا الكتابة والتدوين . فنحن اذن أمام نصوص ، لا يمكن أن نقول انها أصيلة ، لأنها لم تؤخذ من محاضر جلسات ، ولا من كتّاب كانوا يكتبون كل ما كان يقع ويحدث ، وينقلون الكلام نقلاً أميناً صادقاً ، كما ينقل الشريط المسجل للأصوات ، أصوات المتكلمين ، وانما رويت بعد الحادث بأمد ، قد يكون قصيراً وقد يكون طويلاً ، وبعضها أحاديث شخصية ، ليست مهمة ، وقد تكون من الموضوعات ، ولا غرابة في ذلك فكتب التراجم والحديث والسير ، مليئة بتكذيب كثير من هذه الأمور ، التي افتعلت ، إما من الرواة أنفسهم ، وإما من آلهم ، وإما عصبية ، أو عن مذهب وعقيدة .

## أفصح العرب :

وموضوع أفصح العرب موضوع لا أرى انه قد كان لأهل الجاهلية علم به ، إذ كان لكل قوم منهم لسان يستعزون به ويتعصبون له ، يرون انه لسانهم العزيز. ولا يكون فصاحة إلا اذا كان هنالك لسان أدب رفيع ، يكوّنه رجال الأدب من ناثرين وشعراء ، يكون لساناً مقرراً محترماً يتبعه الجميع ، تعقده وحدة شاملة وشعور بوجود أواصر دم وتأريخ واحد وثقافة واحدة ، وقلم يكتب به ، فإذا اجتمعت كل هذه وأمثالها وأضيفت اليها وجود حكومة كبيرة تتخذ ذلك اللسان لساناً عاماً لها ، ثم تقوم بتشجيع الأدباء والعلماء وتحسن اليهم ، صار ذلك اللسان اللسان المحظوظ المأثور المقدم على سائر الألسنة ، وصارت اللهجات الأخرى ،

---

١ اللسان ( ١/٥٨٦ وما بعدها ) ، ( عرب ) .

ألسنة ثانوية بعده ، تعدّ دون اللغة المذكورة في الرتبة والمنزلة والفصاحة ، كما حدث في الاسلام ، حيث اعتبر اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم،لسان الاسلام والمسلمين ، لسان الدين والدولة ، به تكتب دواوين الدولة ، وبه يؤلف العلماء ويكتب الأدباء ، وينظم الشعراء ، وبموجب قواعده المقررة يتعلم اللسان كيفية الكتابة والنطق،من خالفها أو أخذ بألفاظ خارجة على قواعد نحوها وصرفها عدّ عامياً جلفاً من سواد الناس وسوقتهم .

ومدار الفصاحة في نظر علماء العربية كثرة استعمال العرب للكلمة ، سئل ( أبا عمرو بن العلاء ) : « كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : أحملُ على الأكثر ، وأسمي ما خالفني لغات . فما أكثرت العرب من استعماله من غيره ، فهو فصيح . وأما الفصاحة في المفرد : فخلوصه من تنافر الحروف ، ومن الغرابة ، ومن مخالفة القياس اللغوي . والتنافر ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعُسر النطق بها ، مثل (الهعخ) و (مستشزر)[1] . والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفتها الى أن ينقر عنها في كتب اللغة ، أو أن تكون قليلة الاستعمال ، وأضاف بعضهم الى ما تقدم : ألا تكون الكلمة مبتذلة[2] . وآراء أخرى لا مجال للبحث عنها في هذا الكتاب ، لعدم وجود مكان في حدوده .

وقد وضعت هذه الحدود في الاسلام ، أما ما قبله فلا علم لنا برأي الجاهليين في الفصاحة وفي الفصيح ، ولكننا نستطيع بالقياس الى ما عندنا من كتابات ، أن نقول : إن العرب الجنوبيين كانوا يدونون بلهجاتهم المعروفة ، وهي : المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية ، وفقاً لقواعد لهجاتهم وبألفاظهم ، فهي بالنسبة لهم لغاتهم الفصيحة ، لغة التدوين والكلام،ولما قضى السبئيون على استقلال حكومات معين وحضرموت وقتبان وأوسان ، وتكونت منها حكومة واحدة ، ضعفت الخصائص اللغوية التي ميزت لهجات هذه القبائل بعضها عن بعض ، واندمجت

---

١ من قول امرىء القيس :
غدائره مستشزرات الى العلا
المزهر ( ١/١٨٥ ) .

٢ المزهر ( ١/١٨٤ وما بعدها ) .

بلغة السبئيين التي صارت لغة الحكومة ، وصار العرب الجنوبيون يكتبون بها الى ظهور الاسلام . فهذه اللغة ، هي اللغة الفصحى عندهم وقلمها هو المسند .

أما بالنسبة الى العرب الآخرين ، فالظاهر أن عربية ( ال ) ، كانت قد تغلبت عند ظهور الاسلام على العربيات الأخرى ، وفي ضمنها عربية الـ (ه) (ها) ، وذلك بقوة وضخامة القبائل المتكلمة بها ، وباستعمال حكومة الحيرة وحكومة الغساسنة وحكومة كندة لها ، مما حمل الخطباء والشعراء والكهنة والسحرة على النطق بها ، وبلهجاتهم الخاصة بهم ، وهي لهجات كانت متقاربة لكنها تختلف فيما بينها في استعمال بعض الألفاظ وفي كيفية النطق بالكلم ، أي في مخارج الحروف ، وفي خصائص نحوية وصرفية ، إلا أن هذه الفروق والاختلافات لم تخرجها مع ذلك عن وحدة اللغة ، وهي كلها في نظر أصحابها عربية فصيحة ، وقد كانت تتقارب باحتكاك القبائل بعضها ببعض ، وبتوسع نفوذ ملوك الحيرة في جزيرة العرب ، وبتنقل الشعراء والخطباء بين القبائل ، وبتأثر العرب بالأحداث السياسية العالمية ، وبظهور النزعة الى تكوين حكومات مدنية تحل محلّ الحكومات القبلية الضيقة ، وبتوغل المبشرين والمثقفين العرب بين القبائل ، يدعونهم الى النصرانية التي كانت قد جاءت من الحيرة ، بنصرانية شرقية عربية ، متأثرة بالإرمية ، لكنها اضطرت الى التعرب بالتدريج ، وبقي الحال على هذا المنوال إلى أن ظهرت كلمة الاسلام بلغة ( ال ) ، فصارت بنزول الوحي بها أفصح ألسنة العرب ، وصار قلمها قلم الاسلام المقرر . وبذلك نبذ المسند ، وماتت الكتابة به منذ ذلك الحين، ومات التراث العربي الجنوبي بموت لسانه وقلمه .

وبانتصار الاسلام على الشرك ، والاسلام دين ودولة ، دعوته الى ( أمة ) ، المواطنون فيها اخوة ، وله لسان ، هو اللسان الذي نزل به القرآن ، صار هذا اللسان أفصح الألسنة منذ ذلك الحين ، بل لسان أهل الجنة ، وصار من الواجب على المسلمين تثبيت قواعده ودراسته لفهم كتاب الله المنزل به ، خدمة لدين الله الذي شرف هذا اللسان باتخاذه لساناً له . ورعاية قلمه الذي ثبت كتاب الله ، وقام العلماء بضبط قواعده وجمع مفرداته ، والبحث في كل ما يتعلق باللسان من علم . قام بهذه المهمة علماء المصرين : البصرة والكوفة ، وكان لا بد لهم من رسم حدود ، ومن وضع قواعد في كيفية تثبيت العربية ، وفيمن يصح أخذ هذه القواعد من ألسنتهم ، الى غير ذلك من أمور اتبعوها في جمع علوم العربية .

وحين شُرع بوضع قواعد العربية ، كان الاسلام قد حطم حدود جزيرة العرب ، وتخطاها ، قد غلب الساسانيين ، وأبعد الروم عن بلاد الشأم ومصر وما وراءها ، وقد جمع العرب بالأعاجم ، والعجم بالعرب،وشبك ألسنة الأعاجم بلسان العرب ، ولسان العرب بألسنة العجم ، واضطر العلماء الى وضع قواعد فيمن يجب أخذ لسان العرب منهم من العرب ، وفيمن لا يجوز الأخذ منهم ، بسبب اتصالهم بالعجم ، وما طرأ على لسان بعضهم من خبث نتيجة لهذا الاتصال. فكانت تعاليمهم ألا تؤخذ العربية إلا من عرب بقوا بمعزل عن الأعاجم ، فلا « يؤخذ عن حضري قط،ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل الشأم ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم ، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب »[١] .

وذكر أن قريشاً كانوا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وأجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، أما الذين نقل عنهم اللسان العربي من « قبائل العرب ، هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[٢] . وروي أن أفصح العرب عُليا هوازن ، وسفلى تميم[٣] .

وروى ( الجاحظ ) أن ( معاوية ) قال يوماً : « من أفصح العرب ؟ فقال

١ المزهر ( ٢١٢/١ ) .
٢ المزهر ( ٢١١/١ ) .
٣ المصدر نفسه .

قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفُرات ، وتيامنوا عن عنعنة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير . قال : من هم؟ قال قريش »[1] .

وقد تحدث ( الجاحظ ) عن أثر المحيط في تكوين اللغة ، فقال : «وكاختلاف ما بين المكّي والمدني ، والبدويّ والحضري ، والسهلي والجبلي ، وكاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، وكما يقال: ان هذيلاً أكراد العرب، وكاختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحُزون ، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار .

وزعمت أن هؤلاء وان اختلفوا في بعض اللغة ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصور ، فقد تخالفت عُليا تميم ، وسفلى قيس ، وعجز هوازن وفصحاء الحجاز ، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وسكان مخاليف اليمن ، وكذلك في الشمائل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربيّ خالص ، غير مشوب ولا معلهج ولا مذرّع ولا مزلج . ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قبل ما طبع الله عليه تلك البريّة من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كلّ جيزة من الشكل والصورة ومن الأخلاق واللغة »[2] .

فرأى (الجاحظ) ان بين العدنانيين والقحطانيين فروقاً كبيرة في اللغة ، غير ان بين كل مجموعة من هاتين المجموعتين فروقاً لغوية ، كالذي أورده من أمثلة على الفروق التي تكون بين من ينزل الجبال ، أو من ينزل السهول ، وبين من ينزل النجود ، ومن ينزل الأغوار ، ثم الخلافات التي تقع بين بطون القبائل عند تشتتها وتفرقها . ثم تحدث عن لغة عليا تميم ، وسفلى قيس ، وعجز هوازن ، ولغات أهل الحجاز . وهي قبائل تحدث عنها علماء اللغة .

وقد ذكر ( الرافعي ) ان « الفصاحة اشتهرت في مضر ، حتى عُرفت اللغة بالمضرية ، ومن أشهر قبائلها كنانة — ومن بطونها قريش — ثم تميم ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وضبّة ، ومزينة »[3] . وقال أيضاً : « وأفصح القبائل الذين

---

١ الجاحظ ( ٣/٢١٣ ) .
٢ رسائل الجاحظ ( ١/ ١٠ وما بعدها ) ، ( مناقب الترك ) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب ( ١/١٢٥ ) .

هم مادة اللغة فيما نص عليه الرواة : قيس ، وتميم ، وأسد ، والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجُشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف . قال أبو عبيدة : وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر ، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أفصح العربَ بيد اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد بن بكر – وكان مسترضعاً فيهم – وهم أيضاً الذين يقول فيهم أبو عمرو بن العلاء؛ أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم »[1] .

« وتلك القبائل كلها كانت تسكن في بوادي نجد والحجاز وتهامة ،وقد بقيت معادن الفصاحة زمناً بعد الاسلام ، واليها كان يرحل الرواة ، حتى إن الكسائي لما خرج الى البصرة فلقي الخليل بن أحمد ، وجلس في حلقته ، قال له رجل من الأعراب : تركت أسداً وتميماً وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة ! فقال للخليل : من أين أخذت علمك ؟ قال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة . فخرج اليهم ولم يرجع حتى أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب .

ولم تزل هوازن وتميم وأسد متميزة بخلوص النية وفصاحة اللغة الى آخر القرن الرابع للهجرة »[2] .

وقد ترك الأخذ عن ( حاضرة الحجاز ) أي مكة « لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم »[3] ، فلم يأخذوا منهم . وقد قرأنا قبل قليل أسماء القبائل التي أدخلها علماء اللغة في القائمة السوداء المقاطعة التي لم يجوّزوا الأخذ منها ، وذلك حين شروعهم بتدوين اللغة أيضاً للسبب المذكور وهو اتصالها بالأعاجم ، وتأثر ألسنتها بلغات من اتصلت بهم من عجم .

واللغات في نظر ( ابن جني ) على اختلافها كلها حجة « ألا ترى أن لغة الحجاز في إعمال ما ، ولغة تميم في تركه ، كلٌ منهما يقبله القياس ، فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها ، لأنها ليست أحق بذلك من الأخرى ، لكن

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب ( ١٢٧/١ وما بعدها ) .
٢ المصدر نفسه ( ١٢٨/١ ) .
٣ المزهر ( ٢١٢/١ ) .

غاية مالك في ذلك أن تتخير إحداهما فتقويها على أختها، وتعتقد ان أقوى القياسين أقبل لها ، وأشد نسباً بها ، فأما رد إحداهما بالأخرى فلا »[1] .

أعود الآن فأكرر ما سبق أن قلته من اننا اليوم في حاجة ماسة ، الى وجوب تسجيل كل ما أورده علماء اللغة عن لغات العرب ولهجاتها ، فصيحة كانت تلك اللغة أو رديئة ، ولا سيما في الأمور التي شذت فيها هذه اللهجات بعضها عن بعض ، في الشعر أو في النثر ، تسجيل كل الأسماء الجاهلية التي عرف بها العرب قبل الاسلام ، مع بيان أسماء الرجال الذين تسموا بها وأسماء القبائل التي هم منها ، والمواضع التي كانوا بها ، لنتعرف بذلك على أصول هذه القبائل ، والأماكن التي جاءت منها ، والأثر الذي تأثرت به من القبائل المجاورة لها ، فنحن نعرف اليوم ، ان أهل العربية الجنوبية ، كانت لهم أسماء وردت في المسند لم تكن شائعة بين العرب الشماليين ، وقد كانت خاصة بهم ، ثم نعرف اليوم ان الأسماء الواردة في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة المقاربة للاسلام ، اختلفت بعض الاختلاف عن الأسماء القديمة المركبة المضافة ، مما يدل على وقوع تغير في الذوق اللغوي عند العرب الجنوبيين قبيل الاسلام ، وعلى الميل الى اختزال الأسماء وتبسيطها ، على نحو ما كان عند العرب الشماليين ، ومثل هذه الدراسة ، تكون ذات قيمة كبيرة في الوقوف على التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية التي مرت على جزيرة العرب قبيل ظهور الاسلام . وهذا التغير الذي أشير اليه هو شيء طبيعي ، وقع قبل الاسلام ، كما وقع في الاسلام ، فقد ماتت الأسماء الجاهلية ، مثل ( امرؤ القيس ) ، و ( معدي كرب ) ، و (شرحبيل) ، و (شرحئيل)، و ( عبد عوف ) ، و ( عبد مناة ) ، و ( عبد أسد ) ، في الاسلام ، وحلت محلها أسماء إسلامية ، وماتت ألفاظ جاهلية ، بسبب إماتة الاسلام لها ، أو إعراضه عن استعمالها ، أو بسبب تغير الذوق ، فلم تعد تصلح للاستعمال ، وولدت ألفاظ إسلامية لم تكن معروفة عند الجاهليين ، ونشأت معان جديدة لألفاظ جاهلية قديمة لم تكن تعبر عن هذه المعاني قبل الاسلام .

كذلك ، نحن في حاجة الى تدوين شعر الشعراء على حسب القبائل التي ينتمي اليها قالة الشعر ، لنتمكن بذلك من دراسة خصائص شعر كل قبيلة ، وما ورد

---

١ المزهر ( ١/٢٥٧ ) .

فيه من لغتها ، على أن نهتم بصورة خاصة ، بالأصول الأولى لهذا الشعر ، أي بأقدم الروايات التي ورد فيها ، ثم ندون الى جانبها الروايات المختلفة التي ورد فيها على ألسنة علماء الشعر واللغة ، والتعديلات التي أدخلها العلماء عليه ، لنرى ما فعله العلماء في الشعر الجاهلي،وطبيعة ذلك الشعر بالنسبة الى اللغات ، وخصائص كل شعر .

ونجد في كتاب ( الإكليل ) ملاحظات ثمينة تفيدنا كثيراً في دراسة اللهجات العربية الجنوبية ، وقد أخذها من كلام الناس في أيامه . من ذلك ما ذكره في كتابه ( الإكليل ) من قوله نقلاً عن كلام ( أبي نصر ) : إن « حمير تطرح مثل هذه الألف في كلامها ، فنقول : إذا أردت أن تقول للرجل : اسمع واذهب: سِمَع وذِهَب ، وغِضَب في اغضب وشرب في اشرب »[1] . وهي لغة لا تزال تستعمل في بعض القبائل اليمانية[2] . ومن ذلك استعماله لفظة ( القدمان ) في قوله : « وقرأ زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية ، فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل فخففتها العرب وأبدلت فيها الحروف الذلقية، وسمع بها الناسُ مخففة مُبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفر ، خال الجاهل أنه غير ذلك الإسم ، وهو هو »[3] . ولفظة ( القدمان ) من الألفاظ العربية الجنوبية التي ترد بكثرة في كتابات المسند ، ترد مع أسماء بعض الأشهر التي يتكرر اسمها، على نحو قولنا في العربية : ( ربيع الأول ) و ( ربيع الثاني ) ، و ( جمادى الأولى ) و ( جمادى الآخرة ) ، فيستعملون ( قدمن ) ( قدمان ) للأول ، أي الأقدم والمتقدم ، ويستعملون ( اخرن ) ( اخران ) للثاني ، أي الآخر والمتأخر ، وتعني ( قدمان ) القدامى والقدماء كذلك .

ونجد في ثنايا كتابه مصطلحات وألفاظاً أخرى من هذا القبيل استعملها هو ، أو نقلها عن غيره ، أو من الكتب ، وهي ترجع الى اللهجات العربية القديمة ، وقد لا نجد لها وجوداً في معاجم اللغة . كذلك يجب البحث في كتب ( سعيد ابن نشوان ) الحميري وفي كتب غيره من المؤلفين من أهل العربية الجنوبية الى يومنا هذا ، لنلتقط ما قد يكون في ثناياها من كلم عربي جنوبي قديم ، ومن

---

١ الاكليل ( ٤٨/٢ ) .
٢ المصدر نفسه ( هامش رقم ٤ ) .
٣ الاكليل ( ١٣/١ ) .



obeikandi.com

أمثلة وجمل ، وأسماء أشهر وغير ذلك ، إضافة الى دراسة لهجات الأحياء منهم، ووجوب الحفر حفراً علمياً في مواضع الآثار لاستخراج ما فيها من نفائس مكتوبة أو غير مكتوبة لتعيننا في الوقوف على أصول لغة العرب الجنوبيين قبل الإسلام .

ولا بد لنا اليوم من وجوب القيام بمسح لغوي جغرافي ، للغات جزيرة العرب ولقبائل العراق وبلاد الشأم ، لمعرفة ما تبقى عندها من أثر للهجاتها القديمة . مسح عام لكلامها الذي تنطق به ، ولشعرها الذي تنظمه في الوقت الحاضر ، وللأسماء الغريبة التي تتسمى بها ، ومسح مثل هذا سيعين الباحثين كثيراً في الوقوف على أسرار اللهجات العربية قبل الإسلام .



obeikandl.com